مجلة
جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
مجلة-علمية-محكمة- تصدر عن جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية(١٥)(٢٠١٩/١٠) ISSN:٢٦١٧-٥٨٩٤

أولويات الداعية وواجباته الأخلاقية في مجتمع الأقليات

(من خلال وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه)

د. علي هاشم علي الشرفي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد
بجامعة صنعاء – كلية التربية (أرحب)

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى استنباط أهم الفوائد من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أُرسله في ختام البعثة النبوية للدعوة إلى الله في اليمن، وذلك من خلال التركيز على الأولويات التي يجب أن يهتم بها الداعية وكذلك الواجبات الأخلاقية التي ينبغي أن يلتزمها الداعية. ويتلمس البحث حلولاً من منهج النبي صلى الله عليه وسلم للإشكالية التي يقع فيها كثير من الدعاة في مجتمع الأقليات؛ بحيث تصبح الدعوة هي ذاتها سبب صراع عقائدي وفكري وسلوكي يتناقض مع التعايش الحسن والإيجابي مع هذه المجتمعات. وقد استخدمت الدراسة المنهج الوصفي ثم التحليلي.

وقد خلصت الدراسة إلى أن موضوع البحث من المواضيع العملية الواقعية لدى المسلمين والدعاة في بلدان الأقليات على وجه الخصوص. وأن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ رضي الله عنه قد جمعت بين الحفاظ على العقيدة والدعوة لها، وبين التعايش الحسن والإيجابي في مجتمع أهل الكتاب. وأن فهم الأولويات وعلى رأسها أولوية العقيدة يعطي المسلم الكثير من المرونة والفطنة في التعامل مع تفاصيل الأحكام الشرعية لتحقيق التعايش الإيجابي في هذه المجتمعات. وأن للأخلاق مكانة عظيمة وقدرة عجيبة لجذب الناس إلى الإسلام أو احترامه.

الكلمات المفتاحية: الأقليات، الداعية، وصايا، معاذ

The Abstract

The study aimed at devising the most important benefits from the commandments of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) to Mu'adh ibn Jabal, may Allah be pleased with him, when he sent it at the conclusion of the Prophet's mission to call God in Yemen, by focusing on the priorities that the preacher should take care of, The preacher. The search seeks solutions from the approach of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) to the problem of many preachers in the minority community. The call itself is the cause of ideological, intellectual and behavioral conflict that contradicts the good and positive coexistence with these societies. The study used descriptive and analytical methods.

The study concluded that the topic of the research is a practical practical issue for Muslims and preachers in minority countries in particular. And that the commandments of the Prophet peace be upon him to our master Muath may Allah be pleased with him has combined the preservation of faith and advocacy, and the coexistence of good and positive in the community of people of the book. And that understanding the priorities, first and foremost the priority of faith gives the Muslim a lot of flexibility and acumen in dealing with the details of the provisions of legitimacy to achieve positive coexistence in these communities. And that morality has a great place and wonderful ability to attract people to Islam or respect.

Keywords: Minorities, preacher, commandments, Moaz

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ سورة فصلت: آية (٣٣). والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيد الدعاة، سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين القائل: "وَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لك من أَنْ يَكُونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ"(١)، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

فإن بلدان الأقليات(٢) هي من أهم ميادين الدعوة، ويواجه الداعية في هذه المجتمعات الكثير من الصعوبات، ولذلك فالذي يقوم بواجب الدعوة إلى الله في هذه البقاع يحتاج إلى الكثير من المعارف والمهارات والأخلاق ليحفظ لنفسه وللمسلمين مصالحهم الدينية والدنيوية.

وفي أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذاً إلى اليمن، وهو مجتمع كتابي، ووجهه بتوجيهات شملت عدة أمور يحتاجها من يذهب إلى بلدان الأقليات، وأهم تلك التوجيهات ما تعلق بالأولويات التي ينبغي أن يهتم ويبدأ بها الداعية، وكذلك الواجبات الأخلاقية التي يجب التزامها في مثل هذه المجتمعات، والبحث هو دراسة لهذا النموذج النبوي حتى يستفيد منه المسلمون والدعاة إلى الله في مجتمع الأقليات.

---

(١) – أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (١٤٠٧ – ١٩٨٧م) ، الجامع الصحيح المسمى صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة –بيروت– ، الطبعة: الثالثة. ج٤ ص٧٣، واللفظ له، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ــ بيروت. د. ت. ج٧ ص١٢١. وهو متفق عليه.

(٢) الأقلية مجموعة من سكان قطر أو إقليم أو دولة ما تخالف الأغلبية في الانتماء العرقي أو اللغوي أو الديني دون أن يعني ذلك بالضرورة موقفا سياسيا متميزا. عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان. ج١ ص٢٤٤.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

١- بيان أولويات الداعية في مجتمع الأقليات مما يساعد على الجمع بين تحقيق الأهداف الدعوية والتعايش الإيجابي مع المجتمع.

٢- بيان أهم الأخلاق التي يجب على الداعية أن يلتزم بها في مجتمع الأقليات.

٣- التأكيد على أن السنة النبوية غنية بالأمثلة التي تناسب في أسسها كل عصر للتعايش مع المجتمعات المختلفة دينا.

مشكلة البحث وسبب اختياره:

يضع البحث حلولاً لإشكالية الجمع بين المحافظة على العقيدة والدعوة إليها وبين التعايش الحسن والإيجابي مع مجتمع الأقليات، وذلك من خلال وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن، وسيجيب البحث على التساؤلات التالية:

- هل يمكن للداعية الذي يعيش في مجتمع الأقليات الذي يخالف عقيدته وعباداته أن يتعايش معه ويقوم في نفس الوقت بممارسة واجباته الدينية والدعوية؟
- وهل لديه أولويات ينبغي عليه الاهتمام بها، وإن كان ذلك على حساب واجبات أخرى؟
- وما هي أهم الأخلاق التي يجب عليه أن يربي نفسه على الالتزام بها؟

منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي.

الدراسات السابقة:

لم أطلع على دراسة وافية في الموضوع، وكل ما وجدت من دراسات إنما تتعلق بالأولويات بصفة عامة أو بالأخلاق الإسلامية، أما الأولويات الدعوية والواجبات الأخلاقية في مجتمع الأقليات فلم أجد.

هيكل البحث:

يشتمل البحث على مقدمة ومبحث تمهيدي ومبحثين وخاتمة. وتفصيلها كالتالي:

- **المقدمة:** وتشمل: أهداف البحث، ومشكلة البحث، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وهيكل البحث.
- **المبحث التمهيدي:** ويشتمل على:
  - ترجمة مختصرة لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه.
  - بيان حال المجتمع الذي أُرسل إليه معاذ رضي الله عنه.
- **المبحث الأول:** أولويات الداعية في مجتمع الأقليات، وفيه أربعة مطالب:

  المطلب الأول: تعريف الأولويات.

  المطلب الثاني: أهمية ترتيب الأولويات.

  المطلب الثالث: أولوية التوحيد.

  المطلب الرابع: الأولويات في التكاليف الشرعية.
- **المبحث الثاني:** أخلاق الداعية في مجتمع الأقليات، وفيه أربعة مطالب:

  المطلب الأول: التيسير والتبشير.

  المطلب الثاني: التطاوع وعدم الاختلاف.

  المطلب الثالث: العدل في التعامل مع الناس.

  المطلب الرابع: الداعية والتنعم.
- **الخاتمة،** وتشمل: أهم نتائج البحث وتوصياته.

المبحث التمهيدي

ترجمة مختصرة لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه

هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة، روى عنه ابن عباس وابن عمر وآخرون، من كبار التابعين، وشهد بدرا وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وأمَّره النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن، وقدم من اليمن في خلافة أبي بكر، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة أو التي بعدها وهو قول الأكثر، وعاش أربعا وثلاثين سنة وقيل: غير ذلك(١). وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما(٢).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه حبا شديدا حتى أنه أقسم على ذلك، ففي الحديث عن معاذ بن جبل، أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدي يوما، ثم قال: (يا معاذ، والله إني لأحبك)، فقال معاذ: بأبي وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك، فقال: (أوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك)(٣). وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ سورة النحل: آية (١٢٠): (إن معاذا كان أمة

---

(١) ا أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٤١٢ه)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى. –بتصرف–، ج٦ ص١٣٦-١٣٧.

(٢) أبو عمر يوسف بن عبد البر (١٣٥٨ هـ – ١٩٣٩م)، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، على هامش الإصابة لابن حجر، المكتبة التجارية – القاهرة. د. ت، ج١ ص٤٣٩.

(٣) ا محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (١٤١١هـ – ١٩٩٠م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، وصححه الألباني في محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، وقال: رواه أبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان ج١ ص٢٧٣.

قانتا). فلما أعادوا عليه، أعاد، ثم قال: أتدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير والقانت الذي يطيع الله ورسوله[١].

أعلم الصحابة رضي الله عنهم بالحلال والحرام

كان معاذ رضي الله عنه أعلم الصحابة بالحلال والحرام بنص كلام النبي صلى الله عليه وسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)[٢]، وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إذا حضر العلماءُ ربَّهم يومَ القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم بقذفة حَجَر)[٣]، وقال أبو مسلم الخولاني رحمه الله: أتيت مسجد دمشق، فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا شاب فيهم أكحل العين براق الثنايا، كلما اختلفوا في شيء ردوه إلى الفتى. قال: قلت لجليس لي: من هذا؟ قالوا: هذا معاذ بن جبل[٤].

والعلم هو من أهم وأولى صفات الداعية في مجتمع الأقليات، وأول العلوم اللازمة للداعية وأهمها؛ هو العلم بكلام الله تعالى وكذلك كان معاذ رضي الله عنه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَبَدَأَ بِهِ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ)[٥].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري -بتصرف- وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، تعليق الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، ج٢ ص٣٩٠.

(٢) محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ج١٦ ص٨٥. محمد ناصر الدين الألباني (١٩٨٣م)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، (وصححه) ج٣ ص٢٩٣.

(٣) صحيح وضعيف الجامع الصغير، ج١ ص٤٩٠.

(٤) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ج١ ص٤٩٠.

(٥) صحيح البخاري ج٥ ص٤٥، صحيح مسلم ج٧ ص١٤٨. (متفق عليه).

والعلم الشرعي يؤهل الداعية ليكون لديه نظر وبحث في المسائل الخاصة بمجتمع الأقليات، فالفتيا الأقرب للصواب ما كانت نابعة من معرفة بالدليل ودراية بالواقع، يقول ابن القيم رحمه الله: (ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر)[١].

بيان حال المجتمع الذي أرسل إليه معاذ رضي الله عنه

حينما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى مخلاف في اليمن[٢]، بدأ توجيهاته ببيان حال المجتمع الذي سيذهب إليه، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنك ستأتي قوما أهل كتاب...)[٣]، والتعريف بالواقع يساعد الداعية حتى يحسن التعامل مع المجتمع الجديد، وحسن التعامل مع الواقع لا يعني الذوبان مع المنكرات والمشاركة في المحرمات، كما أنه لا يعني مصادمة الواقع فتتغلب المفاسد على المصالح، بل الواجب السعي للمحافظة على العقيدة والدين مع بذل الجهد المناسب لإصلاح الواقع بأحسن الوسائل وأقصر الطرق.

(١) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية (١٩٧٣م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل – بيروت. د. ت. ج١ ص٨٧-٨٨.

(٢) كانت اليمن مخلافان. وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن وكان من عمله الجند بفتح الجيم والنون، وله بها مسجد مشهور إلى اليوم. –بتصرف– أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(١٣٧٩ه)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت، ج٨ ص٦١.

(٣) صحيح البخاري ج٢ ص١٥٨، صحيح مسلم ج١ ص٣٨. متفق عليه.

وكان الحاكم في اليمن هو باذان رضي الله عنه، أصله من فارس، وقد أسلم أيام البعثة النبوية في السنة السادسة للهجرة، ولإسلامه قصة مشهورة في كتب السير[(١)]، وأهم ما يمكن أن يقدمه باذان رضي الله عنه للدعاة إلى الله في بلده هو توفير البيئة الآمنة التي تعطيهم حرية الدعوة، ولا يمكنه –ولا يمكن أي حاكم مسلم– إجبار أحد على اعتناق الإسلام دينا، فالإسلام دين يقوم على الاعتقاد والإيمان المبني على قناعة راسخة لدى المؤمن به. وفي توفير حرية الدعوة: فإن المجتمع الذي أُرسل إليه معاذ رضي الله عنه يشبه مجتمعات الأقليات السائدة اليوم بالجملة لما فيها من مساحة واسعة لحرية الدعوة والتدين، إضافة إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ واصفا المجتمع الذي سيصل إليه: (إنك ستأتي قوما أهل كتاب) يعتبر نصا صريحا في بيان حال المجتمع من الناحية الدينية، فالظاهر منه أن أهل الكتاب أكثرية والموحدين أقلية.

مراعاة ظروف وأحوال البيئة في الدعوة

إنك ستأتي قوما أهل كتاب، في هذا التوصيف النبوي للمجتمع الجديد مفتاح التعامل الناجح معه، وهذا دليل واضح على أهمية معرفة حال المجتمع الذي يكون فيه الداعية إلى الله في بلدان الأقليات، لأن الخطأ الناتج عن الجهل بطبيعة المجتمع قد يحرم إنسانا من الإيمان بالله ودخول الجنة، هذا إن لم يكن له أضرار مستقبلية فادحة على المشروع الدعوي برمته في هذه البلدان لسنوات قادمة.

جاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه أنه كان يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال: (قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم يقاتلون على الحق مرتين)[(٢)]، وفي هذا الحديث وصف آخر للمجتمع الذي سيصل إليه معاذ رضي الله

(١) باذان: من الأبناء الذي بعثهم كسرى إلى اليمن، وكان ملك اليمن في زمانه، وأسلم باذان لما هلك كسرى، وبعث بإسلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستعمله على بلاده، وذكره في الصحابة الباوردي وغيره. –باختصار– (الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر ج٦ ص١٣٦–١٣٧).

(٢) السلسلة الصحيحة الألباني (ج٥ ص٤٩٦)، صححه وقال: أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي.

عنه، وفيه تأكيد على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتعرف رسوله على الواقع الذي سيذهب إليه، فكلما كانت معرفة الداعية بصفات المجتمع الذي يدعو إلى الله فيه أوسع فإنه يحُسن استغلال الفرص، ويتجنب المخاطر التي يمكن أن تواجهه، فلا يتصادم مع مزاج هذا الشعب أو عاداته وتقاليده، ويمكن أن يقاس عليه اليوم معرفة القوانين والدساتير والأنظمة التي يتحاكم إليها أهل هذا البلد حتى تكون وسيلة نافعة لخدمة الدعوة إلى الله.

ولا يمكن القول بأن حال المجتمع الذي أُرسل إليه معاذ يتطابق تماما مع حال مجتمعات الأقليات اليوم، لكنه الأقرب مقارنة بمجمل المهام الدعوية التي أوكلت إلى الصحابة رضي الله عنهم في زمن البعثة النبوية، وما وجد من فروق بين المجتمع الذي أُرسل إليه معاذ رضي الله عنه مع هذه المجتمعات فإنها تعطي الداعية في هذه المجتمعات اليوم مجالا أوسع للأخذ بالرخصة والتدرج ومراعاة الواقع، لأن المجتمع الذي وصل إليه معاذ وإن كان أهل الكتاب هم الأكثرية إلا أن حاكمه كان مسلما يدين بالطاعة والولاء للرسول صلى الله عليه وسلم، بعكس مجتمعات الأقليات اليوم فهي مجتمعات لها نظمها وقوانينها الخاصة بها.

المبحث الأول

أولويات الداعية في مجتمع الأقليات

وضع النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ المنهجية اللازمة للدعوة في مجتمع الأقليات، فبدأ بترتيب الأولويات، جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[1].

(١) صحيح البخاري ج٢ ص١٥٨، صحيح مسلم ج١ ص٣٨. متفق عليه.

المطلب الأول

تعريف الأولويات

الأولويات جمع أَوْلى، وهو اسم تفضيل يدل على أحق وأجدر أو أقرب.

جاء في تاج العروس: يقال: هو أَوْلى بكذا أي أحرى به وأجدر(١).

وفي المعجم الوسيط: الأَوْلى: أفعل تفضيل بمعنى الأحق والأجدر والأقرب (٢).

اصطلاحا: لفظ الأولويات من المصطلحات الشائعة سهلة المعنى، وقد اجتهد بعضهم في تعريفه في مجال الدعوة إلى الله -ولعله من أشمل التعريفات في موضوعه- فقال: (يستعمل في مجال الدعوة ويقصدون به: معرفة ما يستحقه التقديم وما ينبغي البدء به أثناء الممارسة الدعوية، بناء على المعرفة السابقة بمراتب الأحكام الشرعية وبناء على ما يتطلب الظرف البدء به) (٣).

(١) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، الطبعة الأولى. مادة ولي.

(٢) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، دار الفكر. مادة ولي.

(٣) محمد الوكيلي (١٤١٦هـ-١٩٩٧م)، فقه الأولويات دراسة في الضوابط، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى. الأولى.

المطلب الثاني

أهمية ترتيب الأولويات

يتضح اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بترتيب الأولويات جليا من خلال قوله: (فإن هم أطاعوا لك بذلك...)، وتكراره لها بعد كل تكليف شرعي، وفيه دلالة نبوية على أهمية أن يدرك الداعية في مجتمع الأقليات أولوياته الدعوية. وعرف الدكتور القرضاوي فقه الأولويات بأنه: (وضع كل شيء في مرتبته بالعدل، من الأحكام والقِيَم والأعمال، ثم يُقدِّم الأَوْلى فالأَوْلى، بناءً على معايير شرعية صحيحة يهدي إليها نور الوحي، ونور العقل)(١).

وكذلك كانت التوجيهات القرآنية تنبه على الأولويات، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب﴾ سورة الشرح: آية (٧-٨)، والآية واضحة في أنها لم تجعل التكاليف الشرعية بمنزلة واحدة، فإذا فرغ المُكلّف -وهو هنا النبي صلى الله عليه وسلم- من أهمها توجَّه لتنفيذ التكليف الآخر، وفي قول الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة التوبة: آية (١٩)، وفي هذه الآية الكريمة ترتيب للأجر والمثوبة على الأعمال فليست كلها سواء، فأعمال القلوب أعظم أجرا من أعمال الجوارح.

والمتأمل في عموم الشريعة يجد فيها التعاليم والمبادئ التي تنفخ فيها الروح لتجعلها متطابقة مع مصالح العباد العاجلة والآجلة، يقول ابن القيم: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها،

(١) يوسف القرضاوي (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية، ص٩.

ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة"(١).

والواجبات الشرعية ليست في مترلة واحدة؛ فأفضلها: ما كان متعلقا بالله وبتوحيده، وما جاء وقته من العبادات، وما كان نفعه متعديا للآخرين، وأفضلها أدومها، والمتفق عليه مقدم على المختلف فيه، وهكذا. وكذلك المنهيات ليست على درجة واحدة؛ فقد يضطر العبد لارتكاب أحد المنهيات دفعا لآخر، وهذا فهم يحتاجه الدعاة والمُفتون في بلدان الأقليات لكثرة النوازل التي تستجد في حياتهم مما هو في هذا الباب.

والدعوة مسؤولية أمام الله تعالى، فقد يمارس الداعية من التصرفات ما يمكن أن يكون سببا لحجب الناس عن الإيمان بالله، فالدعوة إلى المهم قبل ما هو أهم منه والتشديد فيه سبب من الأسباب التي تؤدي إلى فتنة الناس عن دين الله، وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت –وهي تحدث عن القرآن–: (إنما نَزَلَ أولَّ ما نزَلَ منه سورةٌ مِن المُفَصَّلِ، فيها ذكرُ الجنةِ والنارِ، حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلامِ نزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزَلَ أولُّ شيءٍ: لا تشربوا الخمرَ لَقالوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا، ولو نزَل: لا تَزْنُوا، لقالوا: لا نَدَعُ الزنا أبدًا، لقد نزَلَ بمكةَ على محمدٍ صلى الله عليه وسلم وإني لجاريةٌ ألعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمَرُ﴾ سورة القمر: آية (٤٦)، وما نزَلَتْ سورةُ البقرةِ والنساءِ إلا وأنا عندَه)(٢). قال ابن حجر رحمه الله: "(نَزَلَ الحلال والحرام) أَشَارَت إِلَى الحِكمَة الإِلَهِيَّة فِي تَرتِيب التَّترِيل، وَأَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ مِن القُرآن الدُعَاء إِلَى التَّوحِيد، وَالتَّبشِير لِلمُؤمِنِ وَالمُطِيع بِالجَنَّةِ، وَلِلكَافِرِ وَالعَاصِي بِالنَّارِ فَلَمَّا اِطمَأَنَّت النُفُوس عَلَى ذَلِكَ أُنزِلَت الأَحكَام. وَلِهَذَا قَالَت: (وَلَو نَزَلَ أَوَّل شَيء: لَا

(١) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية ج٣ ص٣.

(٢) صحيح البخاري ج٦ ص٢٢٨.

تَشرَبُوا الخَمر، لَقَالُوا: لَا نَدَعهُا)، وَذَلِكَ لِمَا طُبِعَت عَلَيهِ النُفُوس مِن النَّفرَة عَن تَـــرك المَألُوف"[١].

إن المجتمع المسلم في بلاد الأقليات يواجه بعضا من الضغوط والتشويه الإعلامـــي من قبل المتطرفين والعنصريين في بعض هذه البلدان، وبالمقابل فإن في هذه المجتمعـــات من يحترم المسلمين كجالية وثقافة ودين، ومنهم من يعتنق الإسلام، وبغض النظر عـــن ظهور نتائج التأثير السلبي الحالي للمناوئين للإسلام على المسلمين، فإن ممارسات بعض المسلمين الناتجة عن الجهل بالواقع والأولويات تعطي المبرر الكـــافي لتنـــامي ظـــاهرة العنصرية المعادية للمسلمين، والتي ستؤدي -إن تنامت هذه الظاهرة بصورة متلاحقة- إلى مفاسد تلحق بالمسلمين ومؤسساتهم الدعوية.

(١) فتح الباري – ابن حجر ج٩ ص٤٠.

المطلب الثالث

أولوية التوحيد

وأصل الأصول في الإسلام التوحيد، فلا يقبل الله من مشرك عملا يوم القيامة مهما كان طيبا ونافعا في ظاهره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة النور: آية (٣٩). وذلك أنه لم يكن يبتغي بعمله وجه الله ولا الجنة. والموحد يوم القيامة في دائرة الفلاح والرحمة والشفاعة والخروج من النار إن دخلها بكثرة ذنوبه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير، أما المشرك بالله فلا يُغفر ذنبه وهو مخلد في نار جهنم)(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء: آية (١١٦).

يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة يوسف: آية (١٠٨). "يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي. وقوله: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) أي: وأنزه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه،

(١) صحيح البخاري (واللفظ له) ج١ ص١٧، صحيح مسلم ج١ ص١٢٥. متفق عليه.

عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيرا"(١).

وأولوية التوحيد تبدو للوهلة الأولى واضحة المعرفة وسهلة التطبيق، لكنها عند الممارسة العملية في الدعوة إلى الله في مجتمعات الأقليات على وجه الخصوص صعبة المراس، وما أكثر النماذج التي تظهر على السطح أخطاؤها عند التطبيق العملي. وقد حضرت أحداثاً وسمعت غيرها الكثير ممن حصلت معه مثل هذه النماذج السلبية، ومنها على سبيل المثال: في بلد أوروبي أرادت امرأة أن تسلم، فقال لها شيخ المسجد: تحجبي أولا. وأخرى أسلمت فلما نطقت بكلمة التوحيد أمرها الشيخ بدعوة زوجها للإسلام أو مفارقته، ففارقت هي الإسلام. وأراد رجل أن يسلم فاشترطت عليه إدارة المركز الإسلامي أن يحضر محاضرة أسبوعية لمدة ثلاثة أشهر خوفاً من أن يكون دافعه للإسلام هو الزواج من مسلمة وليس قناعة بالإسلام. ومثل هذه الأمثلة وأشد منها كثير.

ولذلك كانت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه واضحة في هذا الباب؛ مفادها أنه لا شيء قبل ولا أهم من التوحيد، وذلك من خلال إشارتين، الأولى: بقوله صلى الله عليه وسلم: (فإذا جئتهم فادعهم إلى...) وهي تفيد الترتيب بمباشرة الدعوة إلى التوحيد كأولوية. والثانية: بقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن هم أطاعوا لك بذلك) وإن الشرطية هنا تدل على أن لا يبدأ بشيء قبل التوحيد، وهذه صريحة في أولويته.

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ] (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، تفسير ابن كثير المسمى بـ(تفسير القرآن العظيم)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية. ج٤ ص٤٢٢.

وفي أركان الإيمان ينبغي ترتيبها بحسب أهميتها وأولويتها، فتوحيد الله تعالى مقدم على بقية أركان الإيمان، ومقدم على ما تفرع عن هذا التوحيد من مسائل كالأسماء والصفات والحلف بغير الله والسحر... الخ، ففي دعوة غير المسلمين يحتاج الداعية أن يعرف ما هو الحد الذي به تصح تسمية إنسان بأنه مسلم، فيهتم به. ولذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ: علمهم التوحيد أو علمهم الإيمان، بل قال: (فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله...) لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله هي التوحيد المطلوب للدخول في الإسلام، وإن كان الذي يقولها جاهلا ببقية المسائل المتعلقة بالتوحيد.

هذا الفهم يُسهِّل على الدعاة طبيعة النقاش والحوار في الدعوة مع غير المسلمين، فعقول الناس اليوم –خاصة في مجتمع الأقليات– أصبحت أقرب إلى المنطق والحجة، ولم تعد تتأثر كثيرا بالتبعية والتقليد، وحينما يناقش داعيةٌ أحدا في الحجاب أو الخمر والخنزير وتعدد الزوجات الخ من القضايا التي تراها مجتمعات الأقليات من غير المسلمين غير منطقية وغير مقبولة؛ فإن الداعية يكون قد سلك الطريق الخطأ في تقديم غير الأولى.

وقد رأيت الكثير من المواقف التي يحاول فيها بعض الدعاة جاهدا إقناع الأخرين بالفوائد الاجتماعية للحجاب، أو الأضرار الصحية للخمر والخنزير، ورأيت أحدهم حينما سُئل: لماذا يظلم الإسلام المرأة ولا يسمح لها بالتعدد كما يسمح بذلك للرجل؟ فتهلل وجهه ظانا أن الجواب سهلٌ ومقنع، فقال: إن الحكمة من ذلك هي حفظ الأنساب من الضياع، لكن حجته تلك لم تعد مقنعة مع التطور العلمي الحديث، وحتى لو لم يعرف المجتمع نسب المولود فإن ذلك يمر في عرف الكثير منهم مرورا عاديا، ولو توجه الدعاة لهذا الترتيب النبوي الشرعي في البدء بالتوحيد وجعلوا ما سواه ثانويا بالنسبة له؛ لاختصروا على أنفسهم وعلى المدعوين الكثير من المسافات، ولتجاوزوا الكثير من العقبات، فبعد التوحيد تصبح كل التكاليف الشرعية عبادة وطاعة لله سواء أدرك العقل البشري فوائدها أم لم يدركها، وهذا الخضوع والتسليم هو حقيقة العبودية وأفضلها.

وجاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رِدْفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على حِمار يقال له: "عُفَيْرٌ" فقال: (يا معاذ! تدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العبادِ على الله؟)، قال: قلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: (فإن حقَّ الله على العبادِ أن يَعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله عز وجل أن لا يُعذِّبَ مَن لا يُشركُ به شيئاً). قال: قلت: يا رسول الله! أفلا أبشِّرُ الناسَ؟ قال: (لا تُبَشِّرْهُم فيَتَّكِلُوا)(١).

ولعل هذه الوصية النبوية نوع من الإعداد النبوي لمعاذ لمهمة الدعوة في مجتمع الأقليات، وحتى يدرك معاذ رضي الله عنه أهمية التوحيد وأنه سبيل النجاة من النار أخبره النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الخبر المبشر، ثم طلب منه أن لا يحدث بها الناس حتى لا يتكلوا، إنما هو حديث الخواص ليستفيدوا منه في حركتهم ودعوتهم.

ومما يؤكد على هذا الترتيب في الأولويات: أن مسألة التوحيد لا تحتمل التأجيل، ولا التورية، ولا المهادنة، ولا الحلول الوسط، إلا في حالة الخوف على النفس كرخصة فردية، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن أُكرِهَ وَقَلبُهُ مُطمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ سورة النحل: آية (١٠٦)، وورد في السيرة: (أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، ولا تذكر آلهتنا بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح، قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ، لا أَعبُدُ مَا تَعبُدُونَ﴾ سورة الكافرون: آية (١-٢). الآية، وأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ سورة الزمر: آية (٦٤-٦٦)(٢).

---

(١) صحيح البخاري ج٣ ص٣٥، صحيح مسلم ج١ ص٤٣. متفق عليه.

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت: (٩١١هـ) (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: مركز هجر للبحوث، دار هجر – مصر، ج١٥ ص٧١٠، وقال: أخرجه ابن جرير وَابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المطلب الرابع

الأولويات في التكاليف الشرعية

رتب النبي صلى الله عليه وسلم الأولويات في العبادات، فبدأ بالصلاة ثم أتبعها بقوله: (فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة...)، وهكذا بقية التكاليف الشرعية الواردة في الحديث، ولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: إنهم إذا نطقوا الشهادتين فقد لزمهم القيام ببقية العبادات، بل جعلها مرتبة بعد ذلك بناء على الاستجابة، فإذا استجاب المدعو للواجب الأول انتقل به الداعية إلى التالي، وهذا منهج دعوي تربوي نبوي مهم.

وفي التعامل البشري لا يمكن تطبيق جميع التكاليف الشرعية عند الدخول في الإسلام مباشرة، ولذلك كان لا بد من التدرج المبني على معرفة الأولويات، يقول الشاطبي رحمه الله: "وبهذا الترتيب يعلم أن الأوامر في الشريعة لا تجري في التأكيد مجرى واحدًا، وأنها لا تدخل تحت قصد واحد؛ فإن الأوامر المتعلقة بالأمور الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة بالأمور الحاجية ولا التحسينية،... بل الأمور الضرورية ليست في الطلب على وِزانٍ واحد؛ كالطلب المتعلق بأصل الدين ليس في التأكيد كالنفس، ولا النفس كالعقل، إلى سائر أصناف الضروريات"[(١)].

وقد نزلت التكاليف العبادية في مراحل وفترات متأخرة من بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ويمكن للداعية أن يسكت عند الدعوة للإسلام عما سكت عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عند بداية الدعوة، قال ابن تيمية رحمه الله: "قِيلَ: إنَّ مِن المَسَائِلِ

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ) (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى. ج٣ ص٤٩١.

مَسَائِلَ جَوَابُهَا السُّكُوتُ كَمَا سَكَتَ الشَّارِعُ فِي أَوَّلِ الأَمرِ عَن الأَمْرِ بِأَشْيَاءَ وَالنَّهْيِ عَن أَشْيَاءَ حَتَّى عَلَا الإِسْلَامُ وَظَهَرَ"(١).

ومما ينبغي التنبه له أن هذا الترتيب في الدعوة والاهتمام لا يعني أن تتغير الأحكام الشرعية في التوجيه والدعوة عند الداعية، فيقول عن الحرام: حلالا، والواجب: مندوبا. وهنا فرق كبير بين السكوت عن حكم وبين القول فيه بقول على غير حقيقته.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "العَفْو عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي بَعْضِ الأَشْيَاءِ؛ لَا التَّحْلِيلَ وَالإِسْقَاطَ. مِثْلَ أَن يَكُونَ فِي أَمْرِهِ بطَاعَةٍ فِعْلًا لِمَعْصِيَة أَكْبَرَ مِنْهَا فَيَتْرُكُ الْأَمْرَ بِهَا دَفْعًا لِوُقُوعِ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ... مِثْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَهْيِهِ عَنْ بَعْضِ الْمُنْكَرَاتِ تَرْكًا لِمَعْرُوفِ هُوَ أَعْظَمُ مَنْفَعَةً مِنْ تَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، فَيَسْكُتُ عَنْ النَّهْيِ خَوْفًا أَنْ يَسْتَلْزِمَ تَرْكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِمَّا هُوَ عِنْدَهُ أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ تَرْكِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ. فَالْعَالِمُ: تَارَةً يَأْمُرُ، وَتَارَةً يَنْهَى، وَتَارَةً يُبِيحُ، وَتَارَةً يَسْكُتُ عَنْ الْأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ أَوْ الْإِبَاحَةِ، كَالْأَمْرِ بِالصَّلَاحِ الْخَالِصِ أَوْ الرَّاجِحِ أَوْ النَّهْيِ عَنْ الْفَسَادِ الْخَالِصِ أَوْ الرَّاجِحِ"(٢).

ويقول كذلك: "فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف ومراتب المنكر حتى تقدم أهمها عند الازدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر أو جنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرًا. فأما مراتب المعروف

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، مجموع الفتاوى، المحقق: أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ج٢٠ ص٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج٢٠ ص٥٩.

والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث يقدم عند التزاحم أعرف المعروفين وينكر أنكر المنكرين، ويرجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين"(١).

ويقول أيضا: "إن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به؛ بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته"(٢).

وينطبق هذا الترتيب في الأولويات على التعامل مع المسلم التائب والمقصر كما ينطبق على المدعو لأصل الإسلام، فللدعوة والتربية فقهها ووسائلها.

ومن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ يتبين أنه لم يتحدث عن المحرمات رغم اكتمال نزول الأحكام الشرعية في الغالب على النبي صلى الله عليه وسلم حينها، فإن المحرمات تزول ألفتها ومحبتها بالإيمان بالله ومحبته، ولا بد من اختيار التوقيت المناسب للنهي عنها لكل شخص أو فئة بما يناسب على حِدة.

وفي مجتمعات الأقليات اليوم تكثر الفتن، وتتعدد وسائلها، وتندفع الرغبات والشهوات كالسيل في مصب الفتن، ولذلك فليس من اليسير إقناع الذين تربوا في مثل هذه البيئة بالتخلي عن مثل هذه المعاصي، ويضاف إليها المأمورات الشرعية كالصلاة أو الزكاة أو الحجاب وغيرها مما يراها بعض من يدخل الإسلام على أنها ثقيلة ولا يمكنه القيام بها بانتظام. ويمكن للداعية أمام هذه الإشكاليات أن يجعل كل تلك المنهيات أو المأمورات أمورا ثانوية أمام التوحيد، مع التدرج المستمر بعد ذلك في التربية والدعوة والإقناع، دَرءاً للفتنة الأكبر وهي الكفر بالله. يقول ابن القيم رحمه الله: "فإنكار المنكر أربع درجات، الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: د. ناصر عبدالكريم العقل، مكتبة الرشد – الرياض. د. ت، ج٢ ص١٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج٢٨ ص١٢٩.

لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله. الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه، فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة"[١].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ج٣ ص٤.

المبحث الثاني

أخلاق الداعية في مجتمع الأقليات

مدخل:

إن معيار النجاح أو الفشل والقبول أو الرفض للدعوات عند كثير من الناس يقوم على الحجة والمنطق وكذلك السلوك والتعامل جنبا إلى جنب، بل إن بعض الناس يؤمن بدين أو منهج بلا دليل صحيح إن جاءه من صاحب خلق حسن، والحجة في الإسلام عند الدعوة إليه واضحة وبينة، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ سورة الأنبياء: آية (١٨)، ويبقى على المسلم والداعية حسن عرض الحجة والبينة مع حسن الخلق والسلوك؛ حتى تكتمل الحجة على العباد في الدنيا وبين يدي الله يوم المعاد.

والأخلاق هي: "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصدُر الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فِكْر ورويَّة، فَإِنْ كَانَتِ الْهَيْئَةُ بِحَيْثُ تَصْدُرُ عَنْهَا الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ الْمَحْمُودَةُ عَقْلًا وَشَرْعًا سُمِّيَتْ تِلْكَ الْهَيْئَةُ خُلُقًا حَسَنًا وَإِنْ كَانَ الصَّادِرُ عَنْهَا الْأَفْعَالَ الْقَبِيحَةَ سُمِّيَتِ الْهَيْئَةُ الَّتِي هِيَ الْمَصْدَرُ خُلُقًا سَيِّئًا"(١)، ولذلك يحتاج المسلم وخاصة الداعية إلى الله تعالى أن يُذكِّرَ بمحاسن الأخلاق دائما، فإن وجد نفسه مقصرا فيها تكلفها ابتداء، ويكابد ذلك حتى تصبح لديه سجية دائمة في التعامل والسلوك، وقد وصّى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا فقال له: (اتق الله حيثما كنت واتبع الحسنة السيئة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)(٢).

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، إحياء علوم الدين، وبذيله كتاب المغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦هـ، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى، ج٣ ص٨٦.

(٢) سليمان بن أحمد الطبراني (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، الْمُعْجَمُ الصَّغِيْرُ لِلطَّبْرَانِيِّ، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان، الطبعة الأولى. (ج١ ص٣٢٠)، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني،

والمسلم بحسن خلقه يصنع فارقا إيجابيا في التعايش، وفي توفير البيئة الملائمة لحرية الدعوة وحرية التدين، ويصنع بعض الدعاة العكس من ذلك، فيحولوها إلى بيئة طاردة للدعوة والدعاة، سواء كان ذاك بسبب سلوكه في الخطاب أو في التعامل، ولذلك فإن من دعاء المؤمن كما كان يدعو سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سورة الممتحنة: آية (٥)، قال قتادة: لا تُظْهِرهم علينا فيفتتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه[(١)]؛ لأن ظهورهم على المسلمين سواء كان بتسلط، أو تفوقٍ أخلاقي أو تقدم حضاري أو أمني أو معيشي يفتنهم بأن المسلمين لو كان دينهم هو الدين الحق لكان واقعهم أحسن وأخلاقهم أرقى.

ـــ أهم الوصايا النبوية الواردة في الأخلاق عندما أُرسل سيدنا معاذ رضي الله عنه إلى اليمن:

عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده – وجده هو الصحابي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن، فقال: (يسّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا)[(٢)].

وعن معاذ بن جبل أنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن خرج معه يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: (يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي

مسند الإمام أحمد بن حنبل، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسسة قرطبة – القاهرة، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة، ج٥ ص٢٢٨..

(١) تفسير ابن كثير، ج٨ ص٨٨.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص٧٩، صحيح مسلم ج٥ ص١٤١. متفق عليه.

هذا وقبري)، فبكى معاذ جشعا[١] لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: (إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا)[٢].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث به إلى اليمن قال له: (إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين)[٣].

(١) الجشع هنا: هو الجزع لفراق الإلف. انظر: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ) (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض) الطبعة: الأولى، (١٠/ ٣٣٠٨).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٥ ص٢٣٥، والسلسلة الصحيحة للألباني، وصححه، وقال: رواه الطبراني في "المعجم الكبير" ج٥ ص٤٩٦.

(٣) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة، (وحسنه) وقال: رواه أحمد والبيهقي ورواة أحمد ثقات ج٢ ص٢٤٦.

المطلب الأول

التيسير والتبشير

التيسير في الدعوة للإسلام نابع من يسر الإسلام ذاته، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة)[1]، ويقول تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ سورة البقرة: آية (١٨٥).

وعندما أمر النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً بالتيسير لم يكتف بذلك، لكنه نهى عن ضده وهو التعسير، فالأمر بالشيء والنهي عن ضده في نفس المقام يمنع كل تأويل، وحينما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالتبشير لم يأت بضده الذي هو التنذير، لأن الواجب على الداعية أن يمزج موعظته ودعوته بالنذير الكافي لردع المدعوين عن معصية الله.

والقرآن يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالبشير النذير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ سورة الأحزاب: آية (٤٥-٤٧)، وورد في الحديث ضابط لهذه النذارة؛ وهو عدم التنفير ووضعها في مكانها وزمانها المناسبين، فقال: (بشرا ولا تنفرا). وعدم التنفير ضابط لكل سلوك وكل كلام يصدر من الداعية، وهو في النذير أهم لأنه مظنة التنفير حينما لا يكون في سياقه وطريقته الصحيحة.

قال ابن حجر رحمه الله: "قوله: (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)، قال الطيبي: هو معنى الثاني من باب المقابلة المعنوية؛ لأن الحقيقية أن يقال: بشرا ولا تنذرا وآنسا

(١) صحيح البخاري، ج١ ص١٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا تنفرا فجمع بينهما ليعم البشارة والنذارة والتأنيس والتنفير، قلت: ويظهر لي أن النكتة في الإتيان بلفظ البشارة وهو الأصل، وبلفظ التنفير وهو اللازم، وأتى بالذي بعده على العكس للإشارة إلى أن الإنذار لا ينفى مطلقا بخلاف التنفير فاكتفى بما يلزم عنه الإنذار وهو التنفير، فكأنه قيل: إن أنذرتم فليكن بغير تنفير، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ سورة طه: آية (٤٤) "[١].

وكانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الناس للإسلام سهلة واضحة، يجملها في كلمات يسيرة، وعبارات موجزة بينة، وليس من الحكمة أن يضع الداعية الدين كله جملة واحدة أمامَ المدعو؛ وهذا معنى من المعاني اللازمة للتيسير والتبشير في الدعوة وعدم التنفير عنها. قال النووي رحمه الله: "وفيه تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان ومن بلغ ومن تاب من المعاصي كلهم يتلطف بهم ويدرجون في أنواع الطاعة قليلا قليلا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالبا التزايد منها، ومتى عسرت عليه أو شك أن لا يدخل فيها وإن دخل أو شك أن لا يدوم أو لا يستحليها"[٢].

والنفوس بطبعها وفطرتها السوية تحب البشارات، ولذلك فقد استخدم النصارى لدعوتهم إلى المسيحية اسم التبشير[٣] لما في هذا الاسم من جمال يشد النفوس إليه.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ج٨ ص٦١.

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (١٣٩٢هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ج١٢ ص٤١.

(٣) التبشير: تعريف أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية، ولا سيّما المسلمون. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، أجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثةْ وَخوافيهَا ــ التبشير – الاستِشراق – الاستِعمار، دِرَاسَة منهجيّة شاملة للغزو الفكري، دار القلم دمشق، الطبعة الثامنة (ص٣٧).

وكان لمعاذ رضي الله عنه تربية نبوية سابقة في الرفق والتيسير بالناس وعدم التنفير، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة. قال: فتجوّز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذا، فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواضحنا، وإن معاذا صلى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوزت فزعم أني منافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ أفتان أنت – ثلاثا – اقرأ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ سورة الشمس: آية (١)، و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ سورة الأعلى: آية (١). ونحوها)[1].

(١) صحيح البخاري ج٨ ص٣٢، صحيح مسلم ج٢ ص٤١. متفق عليه.

المطلب الثاني

التطاوع وعدم الاختلاف

إن الإنسان بفطرته التي خلقه الله عليها لا يستطيع الاستغناء عن الآخرين، ولا يمكنه العيش معزولا عن بقية الناس، وحتى تستمر هذه العلاقات الإنسانية بصورة ناجحة وجيدة لا بد فيها من الاحترام المتبادل، والتنازل عن الرأي والمصلحة الشخصية، وهذا هو مفهوم التطاوع، ومع التطور الحضاري اليوم فإن العالم لم يعد يتعامل مع الأفراد بصورة فعالة بمثل ما يتعامل به مع المؤسسات والهيئات، وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبي موسى الأشعري بالتطاوع وعدم الاختلاف اختصار للكثير من آداب وأخلاق الحياة الجماعية.

يفقد المسلمون اليوم في مجتمعات الأقليات كثيراً من الحقوق والمصالح المادية أو المعنوية التي تعود عليهم وعلى الجالية الإسلامية بالنفع، ومن أهم أسباب ذلك: الجهل بآداب وأخلاق الحياة الجماعية فيما بينهم فتشتت كلمتهم وتفرق صفهم، فلا تستطيع الأنظمة التعامل مع كل فرد أو مؤسسة على حدة باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد الأقلية المسلمة، فلا تعترف بهم كثير من الدول كدين رسمي كاعترافها بالبوذية واليهودية، حتى أن الاختلاف يصل إلى موضوع موعد رؤية هلال رمضان والأعياد، فيصلي المسلمون العيد في بعض المدن يومين أو ثلاثة متتالية، وحينما يطلب المسلمون من المؤسسات الرسمية منحهم إجازة رسمية بمناسبة العيد يقولون: اتفقوا على موعد واحد حتى نستطيع تنفيذ طلبكم، ويصل التراع أحيانا إلى تقديم الشكاوى إلى مؤسسات الدولة فيضطرون للتحقيق مع أئمة المساجد ودعاتها وإدارة المؤسسات الإسلامية.

ولأهمية الأخلاق الجماعية داخل المجتمع المسلم كان من توجيه النبي المربي صلى الله عليه وسلم لرسوليه عند إرسالهما إلى مجتمع كتابي: (تطاوعا ولا تختلفا)، فالتطاوع وعدم الاختلاف يخلق حالة من المودة والحب والاحترام المتبادل الذي يساعد على

اجتماع الكلمة وتبادل النصيحة والاستفادة من خبرات العاملين في حقل الدعوة إلى الله في الأقليات، وما أشد حاجتهم لذلك. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ سورة المائدة: آية (٢).

إن المتأمل للعبادات في الإسلام يجد أنها تقوم على مفهوم الأخلاق الجماعية، ففيها الكثير من الآداب والأخلاق التي تحفظ الحياة الجماعية وتنميها، فالصلاة لها قائد ولا يجوز مخالفته ولا مسابقته، وإذا أخطأ يُنصح ويُقوم، ويتساوى الناس في صفوف الصلاة، ومثلها الصوم والزكاة والحج وغيرها من العبادات، لكنها في الصلاة أشد وضوحا. وكذلك الخطاب القرآني خطاب جماعي بمجمله (يا أيها الذين أمنوا) و(يا أيها الناس).

المطلب الثالث

العدل في التعامل مع الناس

كانت المجتمعات الجاهلية في زمن البعثة النبوية تضع لكل إنسان قيمة معينة، تنطلق هذه القيمة من أصله وحسبه ونسبه في الغالب، وأهل الحسب والنسب الرفيع هم الذين يملكون المال والجاه والقرار، ونزل في القرآن عتاب لطيف للنبي صلى الله عليه وسلم حينما انشغل عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه بسادة قريش الذين كان يرجو منهم وبسببهم هداية الكثير من الخلق لاتباعهم إياهم(١)، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ سورة عبس: آية (١-١١).

والصحابة بنشأتهم في هذه البيئة يتأثرون بما نشأوا عليه إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على إزالة كل رواسب الجاهلية العنصرية مهما كان شكلها أو مقدارها، فعن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)(٢).

ولذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصي معاذا عند خروجه بقوله: (إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا)، وفيه الحث على تطهير النفس بحسن الصلة بالله فأولى الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم هم أهل التقوى، وفيه أيضا: أن

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٨ ص٣١٩.

(٢) صحيح البخاري ج١ ص١٤، واللفظ له، صحيح مسلم ج٥ ص٩٢. متفق عليه.

على الداعية أن ينظر للناس نظرا متزنا متساويا بعيدا عن لوثات الموازين الدنيوية التي قد تضع على العين غشاوة في التعامل، وهكذا يأمر الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ سورة الحجرات: آية (١٣)، والتقوى التي هي ميزان التفاضل يوم القيامة، هي في الدنيا أمرٌ قلبي لا يعلمه الناس حتى لا يدعي هذا التفضيل لنفسه أحد (التقوى ههنا) وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره ثلاثاً.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعد معاذا لمثل هذه المهام الدعوية بالتوجيه، فنهى عن احتجاب كل من له ولاية ولو يسيرة عن الناس أيا كان أولئك الناس وتحت أي مبرر كان ذلك الاحتجاب، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ولي من أمر الناس شيئا فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة)[(١)].

وتعلم معاذ وعلم الإنصاف في التعامل مع جميع الناس، بعيدا عن الأحكام والعلاقات المسبقة وخاصة في القضايا العلمية والفكرية، ولذلك كان يقول: (إياكم وزيغة الحكيم فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به فإن على الحق نورا)[(٢)].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بالحرص على هداية الناس حتى مع من حاربهم؛ ولذلك وصَّى عليا رضي الله عنه عندما أرسله إلى خيبر أن يكون هدفه هداية الناس أولا لا الانتصار عليهم، فقال له صلى الله عليه وسلم: (ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[(٣)].

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب، وقال: رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني وغيره وهو صحيح لغيره ج٢ ص٢٦٠.

(٢) يوسف بن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣م) (١٣٩٨هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢ ص١١١.

(٣) صحيح البخاري ج٤ ص٧٣، واللفظ له، وصحيح مسلم ج٧ ص١٢١. متفق عليه.

المطلب الرابع

الداعية والتنعم

من وسائل المعارضين للإسلام في النيل من الدعوة إلى الله وحجب حقائقها عن الناس محاولة إلهاء الدعاة إلى الله برفاهية الحياة الدنيا، فيشغلهم ذلك عن واجباتهم الدعوية، ويقيم الحواجز بينهم وبين عامة الناس.

وهذا ما حاول أهل مكة أن يصنعوه مع النبي صلى الله عليه وسلم حين عرضوا عليه الملك والمال والنساء لعله ينشغل بملذات الدنيا ونعيمها عن مهمته الأصلية حينما أرسلوا إليه أبا الوليد عتبة بن ربيعة(١).

(إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين)(٢)، كانت هذه وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ في زمانه.

وفي مثل هذا الزمن أيضا الذي تعددت فيه وسائل الرفاهية والتنعم؛ فالدعاة أحوج إلى مثل هذه التوجيهات النبوية، ووسائل الرفاهية والتنعم في بلدان الأقليات اليوم أكثر منها في البلدان الإسلامية يحتاج الدعاة إلى التنبه لمثل هذه الأخطار والأمراض التي تأكل من إخلاصهم وهمتهم، ومن تفكيرهم وجهدهم، ومن علاقتهم بالناس. والتنعم المنهي عنه هو ما جاوز حد الاعتدال في الحياة الكريمة، قال صلى الله عليه وسلم: (كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة، إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)(٣).

---

(١) راجع: محمد الغزالي (١٩٩٨م)، فقه السيرة، تحقيق: العلامة المحدث محمد ناصر الديابي، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: السابعة، وحسنها ص١٦١.

(٢) سبق تخريجه ص١٩، تحت عنوان (أهم الوصايا النبوية الواردة في الأخلاق عندما أُرسل سيدنا معاذ رضي الله عنه إلى اليمن).

(٣) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح ج٤ ص١٥٠.

ولا تلازم بين التنعم والغنى، فكم من غني يعيش مع الناس حياة بسيطة، وكم من فقير يقترض الأموال لأجل أن يبدو عليه أثر التنعم، والمتنعمون الذين ألفوا هذا النمط من الحياة يصعب عليهم أن يتخلوا عنها؛ فيتمسكون بها وإن سلكوا لأجل الوصول إليها سبل الشبهات.

ويتنافس بعض الدعاة في بلدان الأقليات التي كثرت فيها وسائل التنعم الدنيا حتى يقعوا في الشبهات ولا يتورعوا عنها، وإنك لتجد أحدهم شديد الصبر والتحمل والنشاط في الدعوة حال فقره وشدته، فإذا ما فتحت له بعض متع الدنيا سال لها لعابه ولم يعد يهتم بمهمته وربما أساء لدعوته، قال صلى الله عليه وسلم: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم)[(١)].

قال أبو الحازم: (يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة)[(٢)].

والتنعم يفسد البصيرة، قال الشوكاني رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف٢٣ : "وخصص المترفين تنبيهاً على أن التنعم هو سبب إهمال النظر"[(٣)].

يقول ابن القيم رحمه الله: " قال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطا في النجاة، أو نحو هذا من الكلام.

(١) صحيح البخاري ج٥ ص١٠٨، صحيح مسلم ج٨ ص٢١٢. متفق عليه.

(٢) عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، ذم الدنيا، المحقق: محمد عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية.، ص١٣٤.

(٣) محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ه (١٤١٤ هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ج٦ ص٣٩٩.

فالعارف يترك كثيرا من المباح إبقاء على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخا بين الحلال والحرام"[١]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البذاذة من الإيمان البذاذة من الإيمان)[٢]. والبذاذة تعني: رثاثة الهيئة، والمراد بها هنا ترك الترفه والتنطع في اللباس، والتواضع فيه مع القدرة، لا بسبب جحد نعمة الله تعالى [٣].

وهذا لا يعني أن يصبح الداعية في عزلة عن المجتمع بسبب تقشفه واختلاف حاله، فالأمر في ذلك يختلف من مكان إلى مكان آخر، ومن حال إلى حال، بحسب عرف الناس وأحوالهم وعاداتهم فيقدر الأمر بقدره.

عن عبيد بن صخر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (إني قد عرفت بلاءك في الدِّين، والذي قد ركبك من الدَّيْن، وقد طيبت لك الهدية، فإن أهدي لك شيء فاقبل)، قال: فرجع حين رجع بثلاثين رأسا أهديتُ له.)[٤].

وللتنعم مظاهر متعددة، منها ما يتعلق بالسلوك الفردي كالإكثار من الطعام والشراب والتكلف في اللباس والعطور ووسائل الزينة والبحث عن ما ارتفع ثمنه من الأدوات الإلكترونية والسيارات وما شابه ذلك، ومنها ما يتعلق بالحياة الأسرية كالتبذير والتكلف في شراء المنازل وأثاثها وكثرة التغيير دونما حاجة لذلك ونوعية الرحلات الأسرية وكلفتها الباهضة دونما هدف يحقق أو غاية سليمة ترتجى.

(١) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ج٢ ص٢٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري ج١ ص٥١.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٣٦٨)

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ج٦ ص١٣٧.

الخاتمة

إن أهم ما يؤكد عليه الباحث في الخاتمة أن موضوع البحث من المواضيع العملية الواقعية، ويرجو أن يُسهم في توسيع دائرة الوعي المعرفي والنضج السلوكي لدى المسلمين والدعاة في بلدان الأقليات على وجه الخصوص.

أولا: أهم النتائج

توصل الباحث من خلال البحث إلى النتائج الآتية:

١- إن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ رضي الله عنه في الدعوة إلى الله في مجتمع الأقليات من أهم التوجيهات التي يحتاجها المسلمون والدعاة منهم في مجتمعات الأقليات. فقد جمعت بين الحفاظ على العقيدة والدعوة لها، وبين التعايش الحسن والإيجابي في مجتمع أهل الكتاب.

٢- إن فهم الأولويات وعلى رأسها أولوية العقيدة يُسهِّل على المسلمين الحفاظ على هويتهم وهوية أبنائهم، ويساعدهم في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أنه يعطيهم الكثير من المرونة والذكاء في التعامل مع تفاصيل الأحكام الشرعية لتحقيق التعايش الإيجابي في هذه المجتمعات.

٣- إن دور الدعاة والأئمة في هذه المجتمعات دور ريادي ومحوري مهم، فهم قدوة المجتمع المسلم وهم الناطقون باسمها، وإنه لا تقوم مهمتهم بصورة صحيحة إلا بالعلم وجميل الخطاب وحسن الأخلاق.

٤- إن للأخلاق مكانة عظيمة وقدرة عجيبة لجذب الناس إلى الإسلام أو احترامه، فالقول اليسير الممزوج بالتبشير من أهم ما يحتاج أن يتحلى به الدعاة بعيدا عن التعسير والتنفير. حتى يوصلوا رسالتهم ويحافظوا على مكتسباتهم ويتمكنوا من الاندماج الواعي والإيجابي في المجتمع.

٥- إن أهم ما يحتاجه الداعية في مجتمع الأقليات هو توفر الأمن الذي يكفل له حرية الدعوة، وما هو موجود اليوم في كثير من بلدان الأقليات يوفر ذلك إلى حد كبير، إلا أن الاستفادة من هذا المناخ ليست على الوجه المطلوب.

٦- إن نجاح الدعاة إلى الله في مجتمع الأقليات لا يتمثل بإدخال الناس إلى الإسلام فحسب، لكن النجاح الأهم هو رعايتهم ورعاية هذه البيئة الحاضنة للدعوة إلى الله وتحسينها باستمرار حتى يستمر البلاغ المبين إلى قيام الساعة.

ثانيا: أهم التوصيات

يوصي الباحث من خلال البحث بالآتي:

١- أن تقوم المؤسسات العلمية المهتمة ببلدان الأقليات بتعليم وتذكير المسلمين والدعاة خاصة بهذه الوصايا النبوية فهي توجيهات تستحق الكثير من الدراسة والتأمل.

٢- أن يساهم كل من لديه القدرة في إقامة مؤسسات توعية للأئمة والدعاة، وتفعيل ما هو قائم منها حتى تحقق غرضها الشرعي والدعوي على ضوء هذه الأولويات الدعوية والواجبات الأخلاقية.

٣- أن يكون للمسلمين في كل بلد من بلدان الأقليات لجان ومرجعيات قانونية وإعلامية ودعوية للاستفادة من مناخ الحرية المتاح اليوم، ولمعرفة منافذ الاستفادة من أنظمة تلك البلدان.

٤- أن تقام مؤتمرات علمية يقدم فيها المهتمون بالأقليات في تلك البلدان دراسات تعالج واقعهم، وبحضور رواد العمل الإسلامي فيها.

٥- أن يهتم الباحثون بالدراسات التي تعالج مشاكل الأقليات، وخاصة ما يتعلق بالدعاة إلى الله منهم.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ) (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى.

٢. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ـ بيروت. د. ت.

٣. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ] (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، تفسير ابن كثير المسمى بـ(تفسير القرآن العظيم)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية.

٤. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، إحياء علوم الدين، وبذيله كتاب المغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦هـ، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.

٥. أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (١٣٩٢هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية.

٦. أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (١٤٠٧ – ١٩٨٧م)، الجامع الصحيح المسمى صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت- ، الطبعة: الثالثة.

٧. أبو عمر يوسف بن عبد البر (١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م)، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، على هامش الإصابة لابن حجر، المكتبة التجارية – القاهرة. د. ت.

٨. أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسسة قرطبة – القاهرة.

٩. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٤١٢ه)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى.

١٠. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(١٣٧٩ه)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت.

١١. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، مجموع الفتاوى، المحقق: أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة: الثالثة.
١٢. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: د. ناصر عبدالكريم العقل، مكتبة الرشد – الرياض. د. ت.
١٣. سليمان بن أحمد الطبراني (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، الْمُعْجَمُ الصَّغِيْرُ لِلطَّبْرَانِيِّ، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت، عمان، الطبعة الأولى.
١٤. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ) (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض) الطبعة: الأولى.
١٥. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت: (٩١١هـ) (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: مركز هجر للبحوث، دار هجر – مصر. د. ت.
١٦. عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
١٧. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، أجْنِحَةُ المَكْرِ الثَّلَاثَةْ وَخوافيهَا ـ التبشير - الاستِشراق – الاستِعمار، درَاسَة منهجيّة شاملة للغزو الفكري، دار القلم دمشق، الطبعة الثامنة.
١٨. عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) ، ذم الدنيا، المحقق: محمد عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية.
١٩. عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان.
٢٠. محمد الغزالي (١٩٩٨م)، فقه السيرة، تحقيق: العلامة المحدث محمد ناصر الدياني، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: السابعة.
٢١. محمد الوكيلي (١٤١٦هـ-١٩٩٧م)، فقه الأولويات دراسة في الضوابط، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى.
٢٢. محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية (١٩٧٣م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل – بيروت. د. ت.

٢٣. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية.

٢٤. محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية.

٢٥. محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (١٤١١هـ - ١٩٩٠م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.

٢٦. محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ه (١٤١٤ هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى.

٢٧. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، الطبعة الأولى.

٢٨. محمد ناصر الدين الألباني (١٩٨٣م)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة.

٢٩. محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة.

٣٠. محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

٣١. مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، دار الفكر.

٣٢. يوسف القرضاوي (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية.

٣٣. يوسف بن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣م) (١٣٩٨هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت.